التمثيل الذهني (الصوري)
حسب نظرية جون بياجه JEAN PIAGET

د. بن الطاهر تجاني
جامعة الاغواط

الملخص:

يتناول هذا المقال أحد أهم المكونات الأساسية والقاعدية في النمو المعرفي ألا وهي الصور الذهنية التي يمكن اعتبارها من خلال مختلف التناولات النظرية ضمن علم النفس الحديث و بالأخص نظرية جون بياجيه أحد المكونات القاعدية لتمثيل الأشياء والخبرات لدى الفرد و خاصة عند الطفل خلال مراحل نموه ،إنطلاقا من هذه القاعدة يمكن اعتبار الصور الذهنية قدرة كامنة تعكس مدى قدرة الطفل على الإستدعاء و الاستحضار المعرفي، وعلى أساس ذلك تتضح مدى الأهمية التي يمكن أن تكتسيها أراء جون بياجيه في هذا الصدد حينما نستعرض ما ذهب إليه لما تناول طبيعتها و تصنيفها ومميزاتها التي تقوم عليها و من ثمة أنواعها و أشكالها، و لعل الأهمية في ذلك نستقيها من الاختلافات التي قد تميز تناولات علمية أخرى و عليه أهمية تسليط الضوء حول هذا المفهوم في ضوء نظرية جون بياجيه يمكن اعتباره ذو أهمية كبيرة على اعتبار أنه سيبين ما ذهبت أراءهذا الأخير وتوضح أبعاد هذا المفهوم وتعرض كيف يمكن أن تتدخل الصور الذهنية و كيف يمكن أن تساهم و تتدخل في مسار النمو المعرفي لدى الطفل.

Résumé:

Le présent article, traite l'un des composantes fondamentale dans le développement cognitif, à savoir, les images mentales qui est selon les différentes approches théoriques en psychologie moderne en particulier l'approche piagétien, considéré comme esquisse et élément de base dans la représentation des expériences et événements chez l'individu et en particulier chez l'enfant toute au long de son développement ,à partir de ce constat le concept d'images mentales implique une capacité majeure dans l'évocation cognitif et la représentation imagée, par conséquent vu l'importance des idées avancé par de Jean Piaget en premier lieu, est la particularité de son approche(nature , formes, classifications)et vu les divergences qui peut être constater dans d'autres approche en psychologie modern au tour de ce concept, en considère que l'idée de discuter et mettre en éclaire ce que la théorie piagétienne apporte à une importance considérable puis qu'elle illustre tout d'abord la dimension des images mentales et expose comment contribuent 'elles dans le processus développement cognitif de l'enfant.

مما لا شك فيه أن المتتبع للدراسات الحديثة لمفهوم الصور الذهنية سيجد أن هذا الأخير لقي اهتماما كبيرا ضمن تناولات ما يعرف بنظرية تجهيز المعلومات، إلا أن نظرية جون بياجيه وما ذهبت إليه أرائه خلال رسم مسار النمو المعرفي للطفل كانت السباقة في تسليط الضوء على هذا المفهوم وأعطت له أبعاد تكاد تصبح اليوم خاصة ومميزة لا يمكن تجاهلها على الرغم من اعترافنا بمدى أهمية ما

وصلت إليه التناولات و الأطر الحديثة ضمن علم النفس المعرفي الحديث لمختلف العمليات والمكونات التي تعكس طبيعة النشاط المعرفي و سيروراته، و بما أن الكل يعترف ولوضمنيا بمدى أهمية ما جاءت به أفكار جون بياجيه و تأصيليه العلمي والإبستمولوجي لأفكاره و مسلماته يقودنا إلى محاولة تسليط الضوء أكثر لما ذهبت إليه مجمل أفكاره ، من هذا المنطلق وجب على كل دارس لمفهوم الصور الذهنية أو ما يعرف أيضا بالتمثيل الصُوري و كذا المعرفي الإشارة إلى ما ذهبت إليه نظرية النمو المعرفي لصاحبها جون بياجه **JEAN PIAGET** وعليه لن يختلف إثنان إذا قلنا أن قيمة ما توصلت إليه مسلمات هذا الأخير بعد طرحها على محك التجريب و التحقيق لا خير دليل يفسر لنا سبب تعدد واختلاف أتباع ومؤيدين أفكار هذا الباحث خاصة منهم المهتمين بدراسة الذكاء و بنياته المعرفية وسيروراته المختلفة وذلك على رغم من المقاربات الحديثة التي ينادي بها العديد من الدارسين و المهتمين المحدثين ،وهنا نُشير إلى أن قراءاتنا المختلفة حول هذا الموضوع ومحاولتنا جمع المعلومات في ضوء المقاربات الكلاسيكية و تلك الحديثة ، قادتنا إلى الوقوف فعلاً عند عدة أسباب تفُسر لنا لماذا مازالت تشهد هذه النظرية هذا الكم الهائل من الاهتمام، وتناولها بالفصيل كما تستدعيه الطروحات الأكاديمية قد يخرجنا عن سيقينا و الهدف الذي نريده من هذا المقال ،وهنا نعتقد أنه يكفي للقارئ أن يعرف بأن الدراسات التي تناولت ما ذهبت إليه أفكار جون بياجيه كمرجعية نظرية وعلمية حاولت هي الأخرى تناولأهمية مسار النمو الذي يشهده الذكاء دون باقي القدرات الأخرى،و من ثمة البنيات التي يقوم عليها. و بعض الدراسات الآخرى حاولت دراسة طبيعة التحولات والتغيرات التي يشهدها كلاهما . ولُعلا يختلف اثنان في أن هذه الأخيرة تُعتبر في العمق أحد أشكال التعاقب الذي يُميز مختلف مراحل وفترات النمو و التطور الذيرسمته النظرية المعرفية بالأخص تلك التي تمس البنيات والمظاهر السميائية و في كل الحالات لا مفر من تناول ما ذهبت إليه أفكار جون بياجيه و تجاربه من قريب أو من بعيد.

و لعل ما يلفت الإنتباه في هذه النظرية في الأساسأن المظاهر السيميائية أو ما كان يُعرف بالوظيفة الرمزية في فترة من الفترات لا تعتبر مرحلة من مراحل النمو فحسب إنما قدرة تحتوي على عدة بنيات مكونات معرفية في الأساستتشكل و تأخذ أساسها وقاعدتها من بُعدها المعرفي الرمزي و التمثيلي للواقع والأحداث كاللعب و التقليد و الرسم ومن ثمة الصور الذهنية و اللغة على اعتبار أن هذه المظاهر تمثيلية و بواسطتها يستحضر بهم الطفل جملة من المؤشرات و المعطيات من الواقع و يستدعي بواسطة هذه القدرة ما هو غائب من الأحداث و أشخاص و أشياء مكونة للسياق.وتعكس مدى تعاطيه وفهمه العالم الخارجي الذي هو بصدد التعرف عليه والتميز بين ومكوناته.

و الدارس لمجمل ما وصلت إليه افكار هذه النظرية ومسلماتها ،سيجد حتى اللغة تشهد هي الأخرى بطريقة أو بأخرى نفس المصير من السيرورة في النمو والتقدم في استدعاء العالم الخارجي و إعادة تمثيله، بما أنها تشهد نموا يكتنفه تغير وتحول في المحتوى و الطبيعة بحيث تتمايز من جهة

فيما بينها، و من جهة أخرى بين باقي القدرات والأخرى التي يولد الطفل و لهُ استعدادات فطرية على استغلالها و توظيفها إذا ما توفرت لهُ الشروط و الإمكانيات.بما في ذلك النظام الفردي لترميز (Le système de symbolisation individuel) مكونات العالم (أشياء وأحداث)*.حيث لا ينشط هذا النظام الفردي و يرى النور إلا بمرور الطفل للمرحلة ما قبل العمليات الإجرائية.أين يؤدي نشاط هذا النظام إلى تغير محتوى الصيغ **Schèmes** الحسية الحركية إلى صيغ تمثيلية[1].هدف هذه الصيغ الأخيرة تنشيط بطريقة متعاقبة و تعقيد تدريجي احتمالات الاستدعاء التمثيلي **lévocation représentatif** هذا الأخير الذي يُشكل كما سبقت الإشارة إليهِ الوظيفة الأساسية للمظاهر التمثيلية التي تُكون الوظيفة السيميائية (الرمزية) التي جاءت بها النظرية التكوينية أو ما قد يصطلح به لدلالة على إسهامات **J.Piaget**.

و ما يجب الاشارة له عند تناول ما ورد في العديد من الإساهامات النظرية المختلفة بإختلاف الاتجاهات الفكرية والنظرية هو أن قُدرة الاستدعاء التمثيلي تسمح للطفل باستدعاء الأحداث و الوضعيات غير المدركة في تلك الآونة.و ذلك بواسطة الإشارات و الرموز كما أشارت إلى ذلك **C.Trourret** و أتباعها [2].هذا التمثيل يمس بالدرجة الأولى الأشياء و الأحداث التي هي في الحقيقة عبارة عن مدلولات،بينما الاستدعاء يتم بواسطة سلوكات مختلفة كتلك التي تُشكل المظاهر السيميائية التي تطرقنا إليها في بداية هذا المقالو هنا يجب أن نعرف أنها تُؤخذ على أنها إشارات، حيث يعتبرها غالبية الدارسين دّوالاً .

و إذا ما أردنا أن نكون دقيقين في توجهاتنا و أهدافنا نقول إن اعتبار الصور الذهنية إحدى المظاهر التمثيلية التي تتكون منها الوظيفة الرمزية أو بالأحرى السيميائية. وهذا يستدعي منا اعتبارها هي الأخرى مدلولات ،بمعنى أداة تمثيل ذهني(عقلي) للأشياء و الأحداث التي تُستدعى إلى الفكر ،هذهِ المدلولات تعكس توفر و تواجد معرفة طبق الأصل لجملة من الأشياء و الأحداث.

إذن الصور الذهنية تسمح لنا دون شك بالقيام في آن واحد تحركات و كذا إحداث تغيرات على الأشياء ،و ذلك بنفس الطريقة التي نقوم بها على الأشياء الفعلية التي تكون حاضرة من حولنا فيزيائياً[3]حيث يُشير **Fortin** إلى أن الصور الذهنية يظهر أنها تكتسب بعض الخصائص الفيزيائية الفعلية للوقائع التي تُمثلها[4] وهذا يقودنا إلى القول إن الطفل لديهِ قُدرة معرفية(ذهنية) تسعى إلى الاحتفاظ في الذاكرة بالخصائص الفيزيائية الواقعية للأشياء و الأحداث في حالة ما تُستدعى بواسطة التمثيل الصوري(الصور الذهنية) .

تعريف الاستدعاء التمثيلي الصوري:

قبل دراسةهذهِ النقطة لابد أن نعرف أنهُ غالباً ما يرتبط مفهوم التمثيل بالاستدعاء ،و لكن لفهم طبيعة العلاقة التي تجمعهم نشير إلىأن مصطلح التمثيل وما يُقابلهُ باللغة الأجنبية هو كلمة" **Représentation**"بينما مصطلح الاستدعاء تُقابلهُ كلمة " **Evocation**" التي تعني استحضار

(استدعاء)ما تّم إدراكه. وهذا المُصطلح الأخير مشتق من الكلمة اللاتينية "EVOCARE"التي تعني الاستدعاء في ذاتهِ بمعنى استحضار بواسطة الصور[5].

ومن ثّم لإعطاء تعريف لمصطلح التمثيل الصوري،قادتنا قراءاتنا المختلفة حول هذه النقطة إلى تمييز جدال علمي ثري بين الباحثين،لأن التمثيل الصوري يُعد مفهوماً كثير الاستعمال في ميادين علم النفس[6]. هذا ما يُفسر سبب وجود الاختلافات بين التعاريف المعتمدة في كُل ميدان ، حيث لا يدور هذا الصراع فقط حول التمثيل الصوري و لكنه يحتد أكثر حول "مفهوم التمثيل"في حد ذاتهِ .و من هنا نستطيع القول إن كُل باحث أعطاه تصوراً خاص ، وهذا ما أدى إلى احتدام الصراع العلمي من ميدان إلى آخر حسب اهتمامات كُل دارس. و لا ريب إذا قلنا إن محاولاتنا لكشف مُختلف تصورات هذا المفهوم قادتنا من جهة إلى التميز فعلاً أن هذا المصطلح كثير الاستعمال في ميدان علم النفس دون غيرهِ من الميادين،و من جهة أخرى إلى تميز نفس المصير بما أن هذا الصراع و الجدال لا يقتصر فقط بين الميادين العلمية،إنما نجده يمتد أيضا إلى التعاريف المعتمد بين الدارسين في علم النفس.هذا ما قادنا إلى التساؤل لعدة مرات هل نحن بصدد البحث عن نفس المفهوم الذي نريد دراسته ؟

الخلاصة التي يمكن أن نصل إليها هي أن مفهوم التمثيل في علم النفس يكتسب عدة تعاريف و هذا راجع دون شّك لإختلاف أنواع التمثيل ، و التي تطرقت إليها فروع علم النفس المختلفة .

وعليهِ نعتقد أن اختلاف التعاريف التي قد نصادفها لا يمكن إرجاعها إلا لعامل اختلاف و ثراء التيارات النظرية و الفكرية في ميدان علم النفس فقط الذي فتح الباب على مصراعيهِ أمام مُختلف الاهتمامات.بما أن مفهوم التمثيل لا يختلف فقط من ميدان إلى آخر (علم النفس العام، علم النفس الاجتماعي، علم النفس التطوري...) إنما بالعكس يوجد هناك أيضاً نفس الصراع بين العديد من الباحثين من نفس الفرع،أو بمعنى آخر نفس الحقل النظري مثل ما هو الحال في علم النفس التكويني[7] .

وصولاً عند هذا الحد نعتقد أنه من الضروري أن نطرق بإجاز في بادئ الأمر رغم ما سبق ذكره – لبعض الآراء و الأفكار التي ناقشت وأثرت هذه القضية وذلك حتى تتضح للقارئ الرؤية أكثر.و قبل ذلك لابد أن ننوه بأن التمثيلات الصورية هي قبل كُل شيء نشاطات معرفية **" Des Activités Cognitives"** حيث يذكر الباحث محمد برنوسي و أتباعهِ أن النشاطات المعرفية هي في الأساس مصدر التنسيقات المتتالية التي توجد بين مجمل العناصر الشكلية **"les éléments figurées "** تحت شكل جديد يتم تخزينها في الذاكرة[8].و في هذه الحالة كُل فرد (طفل)يمكنه في أي لحظة استدعاءها (استحضارها)بواسطة سلوك تمثيلي (لغة أو إشارة رمزية)،بما في ذلك الصور الذهنية.و هذا يقودنا إلى الاتفاق مع أراء **M Denis** كونها تعتقد أن التمثيل هو في الأول تمثيل معرفي لذاي تُوكل له وظيفة التمثيل في الذاكرة طويلة المدى معرفة تّم اكتسابها من طرف الفرد[...][9].

و عليهِ يكون التعريف العام لمفهوم " التمثيل **eprésentation** "الذي نعتمده نحن هو ذلك التعريف الذي وجدناه معتمداً عند الكثير من الدراسات التي تُعرفه على أنه القُدرة المتنامية لاستدعاء ذهني

- لشيء أو عدة أشياء
- لصورة الذات
- لصورة شخص ما
- لحدث ما أو وضعية ما.

وصولاً عند هذا التصور لابد أن نلفت انتباه القارئ من جهة إلى أن التضارب و الاختلاف بين التعاريف قد قاد الكثير من الباحثين إلى تسليط الضوء أكثر على نقاط التشابه بين مُختلف أنواع التمثيلات و ذلك بوضع النقاط حول كُل من

أ). المصدر

ب). الوظيفة

ت). المُحتوى

ث). مسار التكوين

ج). الخصائص العامة.

ومن جهة أخرىأن التطور الذي شهده هذا المفهوم من اهتمام لم ير النور إلا في إطار التيار المعرفي الذي تطور و اتسع مداه .و يمكن القول أن الانطلاقة الفعلية للاهتمام بهذا الأخير كانت خاصة مع ظهور أراء النظرية التكوينية حتى و لو كان السلوكيون[10] قد سبقوا **J.Piaget** في الاهتمام بهذا المفهوم فإن النتائج التي توصل إليها هذا الأخير لها من المكانة التي تجعلها الرائدة في هذا الميدان، كونها كانت إما السباقة أم متزامنة مع الدراسات التي حاولت بدورها فك خبايا هذا المفهوم،مثل الدراسات السوفياتية التي لها هي الأخرى رصيد علمي متعارف عليه مثل دراسات **L.M Vygotski**. و أحد أتباعه **Luria** [11].بمانلهم قد حاولوا تسليط الضوء بطريقتهم على هذا المفهوم الذي اعتبره إحدى الوسائط السميائية **" Médiation Sémiotique "** عندما درسوا النشاطات العقلية التي تسمح للطفل توفره على قُدرة تحويل العناصر الخارجية لأهداف ذات مسار داخلي[12]. و ذلك بمجرد ظهور نتائج هذه الدراسات الأولى .سجلت المكتبة العلمية الانطلاقة الفعلية للدراسات المختلفة بإختلاف الميادين. وهذاماً فتح الباب أمام تعدد التناولات باختلاف مناهل التيارات الفكرية إلا أن الشيء الوحيد الذي اجتمعت من حوله و أجمعت على دراسته هو طبعاً وبالتأكيد النشاطات التمثيلية،على اختلاف أنواعها و مظاهرها.و نعتقد أن هذا ما قاد الدراسات التي أجريت في كُل الميادين الفرعية لعلم النفس أن تلتقي في مجملها حول الخصائص العامة لهذه النشاطات .تاركةً لكل باحث في ميدان بحثه المبادرة حسب ما تمليه عليه اعتقاداته و مبادئه العلمية في دراسة التمثيل المعرفي بأنواعه و مظاهره.

و نظراً لأهمية الخصائص العامة للنشاطات التمثيلية التي تمت على أساسها دراسة التمثيل، نرى لمزيد من الإيضاح أن نتناولها بنوع من التفصيل وذلك حسب أهم فروع علم النفس التي اهتمت بهذه القضية.

الخصائص العامة للنشاط التمثيلي في ميادين علم النفس :

علم النفس العام :

يرى م.برنوسي و أتباعهِ أن التمثيلات في ميدان علم النفس العام هي في الأساس :

- ✓ احتفاظات :التي عامة ما ترافق تحولات تتم حسب نوعية الترميز المعتمدة.
- ✓ مسارات الترميز و التحويل التي تُمس الأشياء عند التمثيل يمكن أن تنقص من المحتوى المعلوماتي الذي تحملهُ و حسب نفس الباحث أن هذا لا يمكن تعميمهُ لأن التحولات التي تطرأ قد تُثري من محتوى هذهِ التمثيلات.
- ✓ التمثيلات في علم النفس العام هي بالدرجة الأولى توجهية ،بمعنى (أيُ) مثل (ب) و ليس العكس[13] .

علم النفس الاجتماعي و علم النفس التطوري :

في البداية نُشير إلى أن السبب الذي قادنا إلى الدمج بين هذين الفرعين عند تناولنا لخصائص التمثيلات يعود في الحقيقة لكون جُل هذهِ الخصائص التي أشار إليها الباحثون في علم النفس الاجتماعي يمكن أن يُعترف بها وتُدمج في علم النفس التطوري تماماً كما ذهبت إلى تأكيد **Jodelet** التي ذكرها م.برنوسي[14] بإعتبار أن التمثيلات التي تُدرس في كلا الفرعين هي في الأساس :

- ✓ تمثيلات لأشياء بما في ذلك (الأشخاص.أحداث،أشياء ...)
- ✓ لها طابع صوري "**Un caractère imaginant**"الذي يهدف إلى استحضار الشيء الغائب .
- ✓ لها خاصية رمزية و دلالية .
- ✓ لها خاصية بنائية.الفرق بينها في كُل من الفرعين يكمن في أنالتمثيلات الاجتماعية لها بُعد اجتماعي،بينما في علم النفس التطوري تكوين التمثيلات يكون بواسطة التفاعل مع المحيط و الوسط الاجتماعي.و هنا تتجلى أهمية الوسط الاجتماعي و تأثيرهُ في مسار التكوين [15] .

وهنا نلفت انتباه القارئ إلى أن القراءة الوجيزة لمجمل الخصائص تمكننا من استنتاج أن هذهِ الأخيرة كانت ومازالت محط الدراسة والبحث،ليس فقط في علم النفس التطوري إنما أيضاً في باقي تخصصات على اختلاف الميادين العلمية و النظرية.

كما أن دمجنا للفرعين (علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التطوري) لا يعني أنهما متشابهان كلياً في تناولهما لهذهِ القضية،إنما رغم التشابه الكبير الذي قد يُميزهما إلا أن لكل فرع منهما خصوصياتهِ التي ينطلق منها بصفة عامة ما يُميزهما يمكن استخلاصهُ من النقد الموجه لنظريات رواد كُل فرع بعد أن وضعت اقتراحاتهم مجدداً على المحك. وذلك كما سبق لنا و أن ذكرناعندما أشرنا لما لاقتهُ النظرية التكوينية من نقد. أضف إلى ذلك ما جاء بهِ التيار الحديث الذي يعرف بنظرية تحليل المعلومات كون أن الدراسات التي توالت في هذا الاتجاه ركزت خاصة على مصدر و وظيفة التمثيلات بأنواعها المختلفة.

وقبل أن نشرع في تناول ما يربطالتمثيلات المعرفية بالصور الذهنية نُشير إلى أنهُ سبق لنا و أن ذكرنا كيف استطاعت التمثيلات المعرفية أن تنتزع لنفسها مع مرور الزمن مكانة في مختلف الميادين العلمية خاصة في علم النفس و من جهة أخرى حاولنا أيضاً التطرق إلى الكيفية التي تنشط بها عندما ذكرنا أنها تنشط بواسطة علامات مختلفة .تعرف هذهِ الأخيرة عند الدارسين بالدوال " **Des Signifiants"** كما أننا حاولنا التقريب بين هذا المفهوم السابق و الصور الذهنية التي يُوكل لها مهمة استحضار معرفة تّم اكتسابها .و لا ننسى أن هذا الاستحضار يتم بواسطة نظام ترميزي **"Un Système de Symbolisation"** الذي توكل لهُ بدورهِ مهمة تجميع و تشكيل العناصر المكّونة للأشياء و الأحداث.

بعد هذا العرض الوجيز نعتقد أن ما قيل لا يمكّننا فقط من تفسير كيفيات الاحتفاظ التي يقوم بها الطفل للحالات المدركة ،و لكن يقودنا إلى أبعد من ذلك كونهُ يفرض علينا الأخذ بعين الاعتبار دور المظهرين اللذان يكونان العناصر المركزية للتوظيف المعرفي. و التي أشار إليها **J .PIAGET** وأتباعه عندما تطرق إلى المظاهر الشكلية "**Aspect Figuratif**".هذه المظاهر الشكلية هي في الأساس مظاهر تحمل في طياتها معرفة .مُخالفة في ذلك المظاهر الإجرائية[16].كون أن هذين المظهرين ومن شأنهما أن يساعداننا في فهم الآليات التي تتحكم في توظيف الصور الذهنية التي تُعد هي الأخرى مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بالكيفية التي ينشط بها المظهران في كل سن. ومن ثّم نعتقد جازمين أن محاولة فهم الطبيعة الرمزية التي تُمير خاصية التوظيف بين مختلف الوظائف المعرفية لابد أن نعرف لأن هذه الطبيعة الرمزية تتحكم بدورها في طبيعة العلاقة الموجودة بين هذين المظهرين تماما كباقي الوظائف المعرفية الأخرى ذات البعد التمثيلي الذي يبتدئ في المرحلة السادسة من المرحلة الحسية الحركية.

الطبيعة الرمزية للصور الذهنية :

لفهم الطبيعة الرمزية للصور الذهنية من خلالما سبق ذكرهُ و كذا مختلف التناولات التي اهتمت بالتوظيف المعرفي توصلت هذه الدراسة إلى تقديم عدة شروط أساسية على رأسها وجود نظام رمزي يتدخل عند الفرد يجعل منهُ نظاما ترميزيا فرديا يكتسب عندهُ من المكانة و الأهمية المعتبرة اللتين يجعلان منهُ أساساً لكل المسار التوظيفي.و كما أكدنا سالفا أن هذا النظام يُعد ضرورياً في مسار النمو و التطور يشهدهُ الطفل بما أنهُ يسمح له باستدعاء ما تّم إدراكهُ و استيعابهُ من قبل.و التساؤل الذي يُطرح أمامنا في بداية هذا المقال " هل للصور الذهنية فعلاً طبيعة رمزية؟".للإجابة عن هذا السؤال لابد من تقديم المسلمة التي تؤكد وجود هذه الطبيعة،بالنظر إلى المكانة التي تحتلها في قائمة المظاهر الخمسة الرمزية (التمثيلية) التي ذُكرت من قِبل **J.Piaget** .ومن جهة ثانية،يمكننا القول أن ظهور التمثيل الصوري،يكون بمجرد ظهور الصيغ التمثيلية خلال تكوين قُدرة دوام الشيء و انطلاقاً من هذا يمكن لنا تقديم المسلمة التي نعتبر فيها الصور الذهنية ذات طبيعة رمزيةو ذلك لأنها تُشكل امتداداً للوظيفة الرمزية التي تغطي كيفية استغلال الرمز الذي يحمل في طياته ما يتشابه فيهِ المُرموز

" **Le symbolisant** " و المُرَمّز "**Le symbolisé**"[17].في حين يمكن القول أن الصور الذهنية كبنية معرفية تكتسب الطابع الرمزي–حسب ما ذهب إليهِ **J.Piaget**– إذا ما قمنا بمقارنة جزئية بين كلمة الصور و متلحملهُ من معنى الصور الذهنية و ذلك لفهم الترميز الذي يحققهُ هذا الشكل من الصور، لابد أن نعلم حينئذ أنها الأداة التي من دونها لا يتم التبادل اللفظي.فهذا الشكل يضمن التأثير المباشر على الأشياء و الأحداث في حضور الأشياء أو غيابها.

حسب ما توصلت إليهِ دراسات النظرية التكوينية و كذا بعض الدراسات الأخرى التي حاولت إلقاء الضوء على الصور الذهنية التمثيلية هناك شبه إجماع بينهم على أن هذا الشكل من الصور يُقابل ما يدعونهُ الدال و المدلول.هذا التصور كما ذكرنا في الفصول الأخرى يقترب إلى حد بعيد مع ما ذهبت إليهِ دراسات دوسوسير للعلامة اللغوية[18].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن حتى هذا الباحث قد تطرق إلى الوحدة التي تجمع بين الدال الذي يستحضر (يستدعي) المدلول المقدم من الفكر و الصور الذهنية –حسب ما ذهب إليهِ صاحب النظرية التكوينية لها الشكل الرمزي ،بما أن هذهِ الصور تُشير إلى الشيء في حد ذاتهِ بكل ما يحملهُ من خصائص،المدركة و الشكليةو من ثّم الصور في هذهِ الحالة تعني كُل ما يحملهُ المعاش من خلال التجارب الاجتماعية التي يمر بها الفرد أو بالأحرى الطفلالذي يجد نفسهُ وجهاً لوجه مع إشارات اجتماعية يتم التعرف عليها من خلال نظام جمعي يتلاقى فيهِ المعاش و التجارب الاجتماعية.في حين عندما يتعلق الأمر بالإشارة الذهنية (الصورة الذهنية)هذا يعكس في كلتا الحالتين استدعاء لخبرة اجتماعية (فردية).بمعنى آخر هذه الإشارة ستتمثل بواسطة آليات رمزية (سميائية) كالصور الذهنية[19].الرمزية في حالة الصور الذهنية تعود حسب **J.Piaget** لعامل التشابه الذي يوجد بين الدال ،لأن الفرد في البداية سيقوم برسم تخطيط لمجمل خصائص الأشياءبمعنى هناك بعض الخصائص التي يُحتفظ بها كما هي بينما الأخرى منها ما يُقصى و منها ما تفقد من شكلها الأصلي [...][20].و بصفة عامة هذهِ التغيرات و التحولات التي تحدث للأشياء ستستعيد شكلها مع تقدم الطفل في نموهِ الذهني ،أين تفقد تلك التخطيطات التي غيرت و حّولت من شكل الأشياء التي تكتسب و بشكل تدريجي صور واقعية إلى حد بعيد[21]، طبعاً هذا سيكون مع التقدم في نمو و التحكم أكثر في الواقع إلى أن تصبح هذه الصور المُكونة تُلل عن الشيء في حد ذاتهِ بكل ما يحمل من خصائص إدراكية و خواص شكلية محسوسة التي تنوب عن المفهوم الذي يُترجم حسب **J.Piaget**و أتباعهِ الفهم عند الطفل و الذي يُبين الخصائص المكونة.

و عليهِ يمكننا القول أن الصور الذهنية في هذه الحالة تقابل "الكلمة" بما أن هذه الأخيرة تعكس مجمل المفردات و الحروف التي تصف الشيء في حد ذاتهِو من ثّم يمكننا أن نصل إلى النتيجة التي تُلحق بالصور الذهنية الطابع الرمزي و ذلك بنفس الكيفية التي تتميز بها قُدرة اللغة في هذا الصدد. وهنا نفتح قوسين لنشير من خلالهما إلى أنه حسب الدراسة المعمقة التي قام بها **J. Piaget** حول هذه النقطة إن الصور الذهنية تظهر قبل اللغة و تشكل في نفس الوقت أحد المظاهر الأساسية التي تُميز الوظيفة

الرمزية .و هذا يقودنا إلى القول أن الصور الذهنية قبل أن تكون أحد هذه المظاهر فهي أكثرهم ارتباطاً بقدرة التمثيل وهذا لا ينقص قي شيء من تواجد هذه القدرة الأخيرة عندما يتعلق الأمر بملكة اللغة إنما هما في تكامل كبير يشد كلاهما إلى الأخر .و قد يتفق معنا القارئ هنا عندما نقول أن هذا يقودنا مجددا إلى الأخذ بعين الاعتبار تلك العلاقة التي تنجم عن هذين القُدرتين و بالأخص فيما يخص التمثيل.و ما يمكن أن نضعهُ نُصّب أعيننا هنا أن **J.Piaget** قد سبق لهُ و أن أشار إلى هذه القضية عندما فرق بين الشكلين من التمثيل و كذا المعنى الضيق للتمثيل الذي يعكس الشكل الصوري للتمثيل ،حيث يذكر [...المعنى الضيق .يقتصر على الصورة الذهنية و الذكريات –صورة ،بمعنى الاستدعاء الرمزي لأحداث غائبـة...][21]

المظاهر الشكلية و العملية للصور الذهنية:

بعد كل ما سبق قد لا يختلف الدارسون في أنهُ خلال النمو العقلي يشهد دور التمثيل تزايداً تدريجياً من حيث الأهمية و بالأخص منها التمثيل الصوري (الصور الذهنية)هذا التزايد سابق الذكر سيكون لهُ من التأثير المعتبر عندما يتحكم الطفل أكثر فأكثر في قُدرة الترميز و ذلك انطلاقاً من الفترة السادسة و الأخيرة من المرحلة الحسية الحركية و لكن ما هو متعارف عليهِ أن بوادر التمثيل الصوري تظهر كما سبقت الإشارة إليهِ مع ظهور قدرة "دوام الشيء" و هذا يعني أن التمثيل الصوري (الصور الذهنية) ستسمح للطفل في بادئ الأمر بتكوين معارف ميزتها أنها تشبه الشيء أو الواقع[23]. هذه المعارف لا تكون–كما سبق الإشارة إليه–ذات طابع موضوعي ولكن سيكون هناك جملة من العناصر التي تكون المظاهر الشكلية للأشياء"**Les . Aspects Figuraux Des Objets**" هذه المظاهر الشكلية تُولد حسب **J.Piaget** لارتباطات بين المعارف التي سميناها المعارف المتشابهة" **Les connaissances Copies**" و المكونات الواقعية[...][24].

هذا ما يجعل الصور الذهنية تصبح حسب هذا التوظيف الأداة الُطيا لتشكيل " **La figurativité** " المعارف[25]،الدارس لما توصلت إليهِ دراسات هذا الباحث سيتفق معنا دون شك عندما نشير إلى أن **J.Piaget** يربط عامل التشكيل المذكور سالفاً من جهة بالإدراك الذي ينشط أساساً عند حضور الشيء ، و من جهة ثانيةبالتقليد الذي ينظر إليهِ على أنهُ أداة لها دور وسيط بين الإدراك الحقيقي و التمثيل الصوري.توظيف التقليد يحدث في نطاق حسي أو شبه حسي (تقليد إشاري أو لفظي)، أما الصور الذهنية تظهر فقط في المرتبة الثالثة أين يمكن الحديث عن هذا النوع من التمثيل، بما أن توظيف هذه الأخيرة لا يحدث إلا عند غياب الشيءبمعنى آخر حسب ما ذهب إلى تأكيدهُ **J.Piaget** هذا التمثيل هو إعادة إنتاج داخلي[26] هذا المسار الذي يعيد من خلاله الطفل إنتاج تمثيلات رمزية تُعد من قِبل نفس الباحث بمثابة تجربة رمزية[27] يمكن أن يحدث لها هي الأخرى تحولات و تغيرات عدّة.

و من هنا يمكننا القول بأن الطفل خلال مراحل النمو التي يشهدها في السنة الأولى سيُكّون في بادئ الأمر مُدكالاً من المعرفة و ذلك بواسطة جُملة من الأدوات التي تُعرف بآليات المعرفة التي تمكن

الطفل كما تُشير إلى ذلك **J.M Dolle** من تكوين تمثيلات ترتبط من جهة بالأشكال "**configurations Les**" التي تكون بدورها المظاهر الشكلية السالفة الذكر.و من جهة أخرى تقابلها المظاهر العملية التي تجمع في طياها مُجمل التغيرات و التحولات التي تحدث للشيء في الواقع[28] .هذا الشكل من المعرفة يمكن الطفل دون شك من التأثير مباشرة في الأشياء كما يراها هو أي بمعنى حسب رغباته و حاجياته.و من ثمة يمكن الحديث عن تعقب التحولات و توقع النتائج المنتظرة.و المظاهر العملية تتطلب مُستوى عاليا يعكس قُدرة الطفل على التأثير في الواقع بواسطة الفعل "**l'action**" والعمليات التي من شأنها أن تعكس مُستوى الفهم الذي توصل إليه الطفل و الذي يُعتبر إلى حد بعيد ذو أهمية كُبرى بالنظر إلى التحولات التي تنتج عن ذلك التأثير الذي يُغير من الشيء[29].

ونُشير هنا إلى أن هذا المظهر الذي اصطلحنا عليه بالمظهر العملي يعتمد في توظيفه على الفعل و مُحتوى العملية (الوضعية)التي تُشكل كما أشارت إلى ذلك نفس الباحثة الفعل الداخلي "**Action Intériorisé**" [30] .

و من هنا يمكن لنا القول فعلاً أن هذين المظهرين (الشكلي والعملي) يكونان كما ذهب إلى تأكيده صاحب النظرية التكوينية أحد أشكال(كيفية)التوظيف المعرفي عند الطفل .حتى و لو كان الدارسون ينظرون للصور الذهنية على أنها أحد المظاهر الشكلية التي تكون الصور المُطابقة للأشياء و التي يُكونها الطفل و ليستعين بها عند الحاجة في تعامله مع الوسط الخارجي.هي كذلك شكل وسطي بما أنه –خاصة التمثيل الصوري– يُمكن استغلالها انطلاقا من سن معين في قدرة توقع النتائج و التحولات.

أمام هذه المسلمة التي انطلقنا منها من بداية هذا المقال نعتقد أننا قد وصلنا إلى نتيجة هامة نتفق فيها مع ما أكده **J.Piaget** عندما اعتبر الصور الذهنية الأداة العليا في التشكيل "**La figuration**"[31] ومن ثم نقول أن لهذه المظاهر دور و نشاط تكميلي في التوظيف المعرفي .

نمو الصور الذهنية :

لفهم مسار نمو الصور الذهنية(العقلية)نعتقد أنه من الضروري أن نشير في بادئ الأمر إلى أنه ما يجب أن نوليه اهمية عند تناولنا لهذا العنصر هو أن الطابع العام الذي يقوم عليه هذا النمو يرتبط هو الآخر بالتصور العام الذي يقوم عليه التوظيف المعرفي في كُل نظرية مهما كان انتماؤها النظري أو الفكري،خاصة منها تلك التي حاولت التطرق إلى ما نحن بصدد دراسته.و ما شّد انتباهنا بين مختلف النظريات هو أن كُل نظرية استطاعت تطوير مسار نمو خاص و الذي يأخذ جذوره من الأسس النظرية التي يقوم عليها كُل تيار نظري.

و التيار الذي يتزعمه **Piaget** نعتبره نحن أحسن مثال نورده مقارنة مع نظرية تحليل المعلومات، بما أن هذا الأخير و أتباعه قد تناولوا الصور المعرفية من زاوية مختلف البنيات المعرفية التي يتكون منها النشاط المعرفي للفرد و من ثّم فإن الصور الذهنية حسب هذه النظرية يمكن لها أن تتدخل كبنية في مسار النمو الذهني (العقلي).و لكن لابد من الأخذ بعين الاعتبار أن هذا الباحث بعد أن ألحق الصور

الذهنية بالمسار العام للعمليات العقلية، قد فرق في هذا بين عدة فترات للنمو هذه الأداة،وهنا نُشير إلى أن المسار العام لهذا المتبع كما هو الحال في بقية البنيات الأخرى(التقليد) لا يعتبر موحدا إنما هو متعدد الأبعاد بما أنها تتبع في نفس الوقت من جهة مسار النمو العام،(بمعنى آخر يدخل في مسار النمو العقلي الذي يتبعه الطفل) من جهة أخرى تتبع مسار نمو ذو بُعد داخلي يُميزها عن بقيت المسارات الأخرى التي تمر بها باقي البنيات.

و بصفة عامة قبل التطرق إلى هذه النقطة نشير أنه لاحظنا مجددا صراع نظري بين النظريات حول نمو الصور الذهنية،هذا الصراع نجده هذه المرة بين النظرية التكوينية و الدراسات الحديثة (نظرية تحليل المعلومات)،حيث يدور هذا الصراع حول ما توصل إليه **J.Piaget** عندما أشار إلى وجود شكلين من النمو . الشكل الأول لا يمس فقط الصور الذهنية و لكن حسب هذا الباحث المسار يتبع النمو العقلي وهنا نلفت انتباه القارئ إلى أن هذا المسار يعد طويلا وهذا يتطلب منا أن نأخذ كيفية النمو التي طالما أكدت الدراسات ذات النزعة التكوينية على أهميتها و التي تميز من جهة أخرى بالتوظيف المعرفي التكويني.هذا الشكل من التوظيف الذي يضع كُل الأطفال في تعاقب دائم و موحد للفترات و السلوكات التي يمسها هذا النمو.لا ننسى أن حتى هذا التعاقب يتبع هو الآخر ترتيباً معيناً يعتبره نفس الباحث ترتيباً دائماً و ثابتاً [...] [32] بينما الاختلاف الذي يوجد بين الشكل الأول و الثاني يمكن لنا تلخيصه فيما يلي :

✓ الشكل الأول نجد أن**J.Piaget** قد أكد على أهمية خصائص كُل فترة،حيث ذهب بالقول إلى كُل فترة من الفترات ستتميز بجملة من البنيات المندمجة فيما بينها وهنا يلعب التعاقب دورا في ذلك،الهدف من هذا الاندماج هو تغطيت الخاصية السائدة في كيفية توظيفها و جعلها غير ظاهرة إلى العيان[...] .

و هنا نفتح قوسين لنناقش مورد في النقطة السابقة حيث أن التصور الذي أعطاه هذا الباحث للصور الذهنية يؤكد من خلاله على أن هذه الأخيرة لا تتبع نمواً مستقلاً، و هذا رغم التأثير المحتمل لعوامل النمو التي أشار إليها و التي من شأنها أن تسرع أو تعرقل تكوين البنيات[33] دون شك وصولاً عند هذه النقطة يمكن لنا أن نقف أمام مدى أهمية منشأ هذه الصور مقارنة مع باقي البنيات.و هذا المنشأ لا يُفسر لنا لماذا تتبع كُل بنية مسار نمو داخلي و الذي يكون بطريقة أخرى الشكل الثاني من النمو الذي أشرنا إليه من قبل أين يذكر **J.Piaget**[...]الصور الذهنية لا تتبع نمواً بطريقة مستقلة [...][34].دون شك هذه المقولة تؤكد لنا ما ذكرناه و هذا يقودنا إلى القول أيضاً أن الصور الذهنية التي تظهر بوادرها عند بلوغ الطفل السن 18شهراً تقريباً هي شكل بدائي لا يبقى موحدا، ولكن ستتخللها عدة تحولات التي هي في الأساس تحولات تطورية .

و إذا ما أخذنا رؤية هذا الباحث و اعتمدناها في تناولنا هذا سنجد أن الصور الذهنية هي إمتداد للتقليد ، هذه القدرة الأخيرة التي تأخذ منها جذورها باعتبار أنها فعل داخلي "**Action Intériorisée**" و التي أخذت منشأها من الفعل الذي قام به الفرد و أثر به على الأشياء.و عند هذه النقطة نجد أن

الصورالذهنية عند الطفل لا ترى النور إلا بعد أن يفهم هذا الأخير ما يُقلده طبعاً هذا يقودنا إلى التركيز على أهمية العمليات العقلية و ذلك كما رسمتها النظرية التكوينية.لأن الطفل حسب هذا التصور لابد له من فهم الفعل الذي يُقلده حتى يتم إخضاعهِ لمسار داخلي(**l'intériorise**) وهذا الاخير هو الذي سيولد و يُكون الصور الذهنية .

بينما النوع الثاني من مسار النمو الخاص الذي تتبعه الصور الذهنية و الذي تطرقت إليهِ دراسات النظرية التكوينية لم تغفل فيهِ الطابع الداخلي لهذه البنية رغم خضوعها و مسايرتها للمسار العام لنمو الطفل .وهنا نجد أن هذه النظرية قد قدمت عدة اقتراحات حول النمو التدريجي تماشياً و تقدم الطفل في السن فحسب ما ذهب إليهِ زعيم هذه النظرية أن الشكل الداخلي لنمو الصور الذهنية تُشكل "نمو جزئي"[34] يُشكل في الحقيقة فترات النمو، بما أنه خلال الرحلة ما قبل العمليات الإجرائية شكل الصور الذهنية يعكس وجود أفعال إعادة إنتاج ترتبط في أغلب الأحيان بالبعد الشكلي **Les configuration** أكثر من التحويل[35] .و لكن مع ظهور العمليات الحسية سيحدث للصور الذهنية بعض التغيرات الهامة ، بما أن دور التمثيل الصوري في هذه المرة لا يقتصر على البعد الشكلي "**Formes figuratifs**" ، و لكن تسعى أكثر إلى إحداث تحولات و تغيرات بواسطة الأفعال التي فهم معناها[...][36].هذه القدرة الجديدة ذات البعد التحولي لا ترى النور إلا عند بلوغ سن 7-8سنوات ، أين يُصبح الفكر حسب النظرية التكوينية قادر على إحداث تغيرات وتحولات الحالات طبعا وهذا لا يكون إلا بواسطة العمليات و بُنياتها التي أخذ الطفل يتحكم فيها أكثر[37]و. من ثّم يمكن القول أنه ابتداءًمن سن 7-8 سنوات يمكن أن تظهر بوادر التوقع الذي تتطلب وجود العمليات التي تقود بدورها الطفل إلى شبه استنتاج غير تجريدي لتوقع الحركات أو لإحداث تحولات [38].و هنا نشيرإلى أن الطفل لا يمكن لهُ أن يستقل نهائياً عن السند الحسي للعمليات، مما أدى بصاحب النظرية التكوينية إلى ربط وجود البوادر سابقة الذكر (التوقع) فقط بظهور العمليات[39].

بعد كُل ما ذُكر من وجود مسارين لنمو، نجد أن الدراسة التي قام لها **J.Piaget**قادتهُ إلى التمييز بين فترتين من النمو للصور الذهنية الفترة الأولى تدخل في إطار المسار العام للنمو العقلي للطفل تماشياً و سنهُ ،أما الفترة الثانية معروفة كمسار نمو جزئي، بما أنه يتألف من فترات عدة، تجعل من الصورة الذهنية أداة .أما الخاصية التي يتميز بها هذا المسار عن المسار الأول فتكمن في الانتقاليتين اللتين تحدثان للصور الذهنية.

الانتقالية الأولى تظهر مع بداية الوظيفة الرمزية حوالي سن 18 شهرا من المرحلة الحسية الحركية.و هنا يذكر **J.Piaget** في هذا الصدد أنه على الرغم من أهمية الصور الذهنية في اللعب الرمزي إلا أن و لا سلوك أو قُدرة في هذه المرحلة(الحسية الحركية) تتطلب التدخل الفعلي للصور الذهنية[...][40]بينما الانتقالية الثانية لابد أن نعرف أن لها تأثيرا كبيرا و هاما في مستقبل النمو ، كون أن ظهورها الفعلي سيكون مرافقا لظهور العمليات الإجرائية،هذه الأخيرة تُمكن الطفل أكثر على التحكم في

قدرة التوقع، كما أن هذه القدرة الأخيرة لا تمس فقط ما يمكن أن يصل إليهِ الطفل من تحولات و تغيرات في البنيات، و لكن تمس أيضاً المُحتوى الصور الذهنية بالمقارنة مع بداية ظهورها[41].

بمعنى آخر لفهم ذلك نستطيع القول بأن **J.Piaget** قد ركز في تناولهِ لهذه النقطة على مُحتوى العلاقات التي نجدها بين الدال أثناء مرحلة ما قبل العمليات الإجرائية خلال المرحلة الحسية الحركية و كذالدال الذي نجدهُ خلال المرحلة الموالية و ذلك بالمقارنة مع المدلول في كُل من المرحلتين و التي كّونها الطفل.وعليه يمكن لنا أن نستخلص بعد كُل ما ذُكر أن نمو الصور الذهنية تتبع في نموها بصفة عامة تعاقب المراحل و الفترات الكبرى التي تطرقت لها النظرية التكوينية، و من جهة ثانية تتبع مسار نمو مخالف بدءاً من سن 7 سنوات وبالفعل عند هذا السن لا يمكن لنا الحديث عن وجود توقع النتائج و هنا بالذات لا يتمكن من التوقع الكلي إلا الحركات البسيطة،و انطلاقا من السنة الثامنة (8 سنوات)يكون لهُ و بسهولة إيجاد بوادر التوقع بكل ما تحملهُ هذه الكلمة من معنى الذي يكون لهُ سند فيعمليات تنبؤ و توقع أحداث و نتائج جديدة لم يسبق لهُ و أن تعرف عليها من قبل.

تصنيف الصور الذهنية :

قبل تناول التصنيف المعتمد في دراستنا هذه، نشير أن قراءاتنا حول هذه النقطة قادتنا هي الأخرى إلى تميز تضارب و صراع نظري شاسع بين التصنيفات المعتمدة، طبعاً هذا الصراع يعود كما سبقت لنا الإشارة إليه إلى عدم وجود اتفاق بين وجهات النظر التي تشكل مختلف فروع و تخصصات علم النفس التي غذت مختلف الدراسات بما في ذلك الحديثة منها أو تلك التي كان لها الفضل في بعث الاهتمام بالصور الذهنية دون غيرها من المكونات و القدرات العقلية.

و نؤكد هنا أن ما وجدناهُ بالضبط عندما أردنا تسليط الضوء على هذا العنصر هو امتداد الصراع -سالف الذكر والذي شكل لُب الاختلافات النظرية الجوهرية بين التناولات في البدايات الأولى لاستقلال علم النفس ،أي منذ القرن التاسع عشر .هذا الاختلاف في التصنيفات للصور الذهنية نبع في حقيقة الأمر،من جهة للتصور الذي قدم للصور الذهنية في كُل تناول،و من جهة أخرى لمسار النمو الذي رسم لها .حيث ميزنا هذا التضارب بالأخص –كما سوف نرى فيما بعد– بين الدراسات التي ألحقت بالصور الذهنية قدرة التمثيل الصوري بكلما يحملهُ هذا الأخير من معنى .و كذا تلك التي أشارت لطبيعتها و دورها في المسار العام للنمو و اكتساب المعارفو لا ريب بعد هذه المقدمة إذا قلنا أنهُ كان لكُل نظرية من النظريات التي اهتمت بالتمثيل الصوري تصنيف خاص بها يميزها عن مثيلاتها،وهنا نؤكد أنهُ كان للأسس التي تقوم عليها كُل نظرية دور فعال في رسم تصنيفات الصور الذهنية .

وعليهنعتقد أنهُ من الضروري تتبع ما توصلت إليه أهم النظريتين التين إعتمدناهما منذ بداية هذا المقال،حتى كانت هناك نتاولات أخرى وتصنيفات أخرى لا تقل أهمية على التي اعتمدناهما.هذا ما يقودنا من البداية إلى تحديد الحقل الذي نود دراستهو من ثّم فإننا سنشير فقط وفي الأول لما جاء في النظرية التكوينية و كذا نظرية تحليل المعلومات طالما قيل عنها أنها حديثة ،طبعاً هذا الاختيار للنظرية

الثانية يعود لكون التيار الذي انطلاقنا منهُ منذ البداية مستنبط من هذا التوجه.و قد لا يختلف إثنان إذا قلنا أن سبب اختيار كلا التيارين يعود لما لهما من اتباع و أفكار في هذا المجال،وكما لا يخفى على أحد أن تناول الصور الذهنية دون التطرق لما توصلت إليهِ النظرية التكوينية قد لا نصل به إلى مبتغانا، خاصة في فهم ما يمكن أن يقال في النظرية الثانية باعتبار أن هذه الأخيرة ظهرت على أنقاض النظرية الأولى.

نظرية (J.PIAGET):

في إحدى و أهم دراسة التي قادها هذا الباحث و أحد أبرز أتباعهِ **Inhelder** حول الصور الذهنية لمعرفة طبيعتها و دورها في مسار النمو و بالأخص في نمو العمليات العقلية.قاموا حسب ماذكر **(J) Lautrey** بتقديم تصنيف من نوع خاص لمختلف أنواع و أشكال الصور الذهنية[42]. و لتسهيل فهم هذا التصنيف نقدمهُ على شكل تخطيط يُمثل مستويات التصنيف.و لكن قبل ذلك نقول إن زعيم النظرية التكوينية قد فرق من البداية بين وجود شكلين من التصنيفات هما في ارتباط وثيق .إلا أن الفرق بينهما يكمن من جهة في تناول بنية الصور الذهنية، و من جهة ثانية حسب المحتوى الذي تتميز بهِ.حيث يذكر قائلاً [... يمكن تصنيف الصور الذهنية حسب مُحتواها (بصري أو سمعي) أو حسب بنيتها] [43].

و في هذا الجزء من الدراسة نعتقد أن الشكل الثاني هو الذي يهمنا أكثر .

و عليهِ فإن المستوى الأول من التصنيف يمكن تميزهُ من خلال الإنقسام ثنائي الأبعاد الذي حاول هذا الباحث التأكد منهُ عند تناول الصور الذهنية[44].هذا الإنقسام يكمن في التفريق بين الصور الذهنية التي تعيد الإنتاج بالمصطلح الذي أعطاهُ لها**J.Piaget** الصور المعادة " **Des images eproductrices**" .

و كذا الصور التوقعية "**Les images Anticipatrices**"

1. **الصور المعادة** "**Images Reproductrices**":

هذا الصنف من الصور الذهنية له وظيفة أساسية تقتصر على استحضار كُل شيء أو حدث سبق للطفل التعرف عليه من قبل ،حيث يذكر في هذا الصدد بأن الصور المعادة تستحضر الأشياء و الأحداث المعرفة.

2. **الصور التوقعية** " **Images Anticipatrices**":

هذا الصنف الثاني من الصور الذهنية يكتسب أهمية كبيرة ليس فقط في الدراسات التكوينية إنما أيضاً في باقي الدراسات في علم النفس، بما أنها تشكل القدرة التي يمكن للطفل بواسطتها استحضار و استدعاء أحداث لم يتم إدراكها من قبل [45]بمعنى التوقع الذي يُشكل أساس التمثيل الصوري المعرفي، و الذي يسعى إلى التنبؤ أو إلى تصور جملة من الحركات التي لا تتم حتماً بنفس الطريقة التي تحدث في الحاضر و لكن الطفل سيتصور كيف تحدث هذه الأحداث في المجال الزماني و المكاني.

و من هنا فإن توقع الأفعال لا تحتفظ حتماً بالأشكال الأصلية، و لكن تسمح من ثّم بإحداث –ليس فعلياً – جملة من التحولات و التغيرات بواسطة التصّور الشكلي للنتائج التي يمكن أن تحدث هذه التحولات و التغيرات تتطلب حسب **J.Piaget** سند العمليات، و بصفة عامة هناك نوعان من التوقع.

- ✓ التوقع التحليلي"**Anticipation Analitique** " هذا النوع من التوقع يتطلب نفس العمليات التي تدخل في التكوين الحقيقي للأشياء .
- ✓ التوقع العام " **Anticipation Globale**" لا يتطلب أي تدخل من العمليات .

هذا ما جعل صاحب النظرية التكوينية يعتقد أن الشكل الأول من التوقع (التوقع التحليلي) تتطلب صور ذهنية توقعية بأتم معنى الكلمة، بينما الصور الذهنية التوقعية العامة لا تعتمد إلا على الصور المعادة .[46]

و هنا نشّير إلى أن ما حاول أن يُسلم بهِ صاحب النظرية التكوينية في بداية دراستهِ هو جود الاختلاف سالف الذكر بين الصنفين الصور التوقعية و الصور المعادة و ما يلفت الانتباه أيضاً في هذه النقطة أنهُ أكد أيضاً على وجود عامل التعاقب التكويني.

حيث يذكر **J.Piaget** في هذا الصدد [.التعاقب يظهر أنهُ يشبه التعاقب التكويني لأن الصور المعادة تتكون انطلاقا من مستوى العمليات قبل الإجرائية و حتى منذ ظهور الوظيفة الرمزية،بينما الصور التوقعية بكل ما يحملهُ معناها من بعد لا تتطور إلا انطلاقاً من مستوى العمليات الحسية ...][47].

و عليهِ يمكن لنا بعد ما تناولنا ما ذهبت إليهِ دراسات هذا الباحث أن نستشف وجود نوعين من الصور الذهنية، ليس فقط بمعناها الواسع إنما أيضاَ الصور التوقعية التي تُشكل أحد أنواع التصنيف المعتمد داخل هذه النظرية خاصة منها تلك المستويات التي اعتمدت على أنها أصناف لصور الذهنية البحتةو كما ذكرنا فيما سلف إن المستوى الأول من التصنيف المقدم يُشكّل كما يُبين المخطط أدناه– في الأساس بـ"نية" الصور في حد ذاتها .وهذا ما يدفعنا إلى تناول المستويات التحتية التي تكّون كُل من النوعين الأساسين من الصور الذهنية المذكورين في بداية هذا المقالبما أنها تُشكل "محتوى الصور" . و في هذه النقطة نذكر أن النظرية التكوينية لصاحبها جون بياجيه قد فرقت بين عدة مستويات أهمها ما يبينهُ هذا المخطط.

مخطط(1) توضحي نقترحه لتوضيح مختلف أصناف الصور الذهنية حسب نظرية **J.PIAGET**

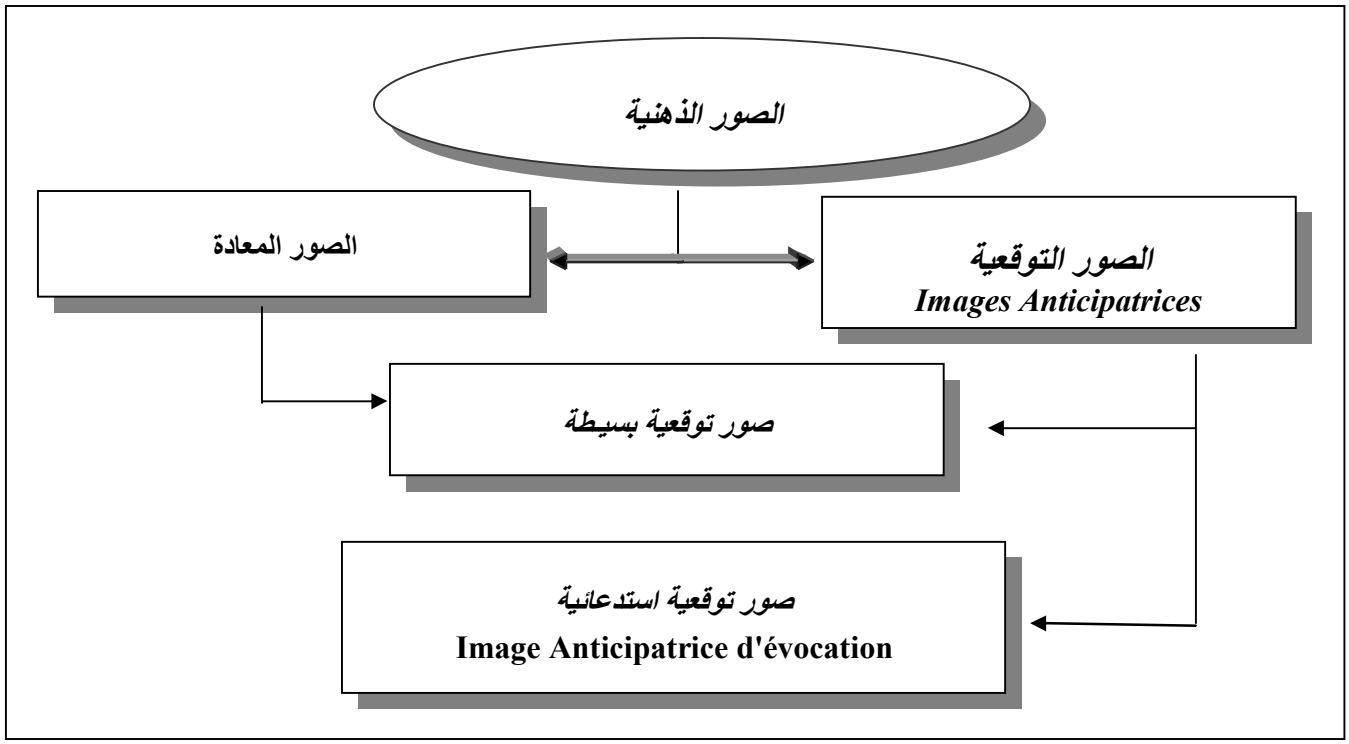

المصدر: صاحب المقال

المخطط السابق نقترحه لتبين ما يمكن استخلاصه لتبيين أكثر المستويات التحتية التي تتكون منها الصور وذلك على ضوء ما رسمته النظرية التكوينية وتمكننا من استخلاصه وهنا نذكر أن كل من النوعين اللذين سبق لنا و أن تطرقنا لهما قد خصص لهما مستويات تحتية أخذت على أنها أصناف،وبما أننا نهتم في دراستنا هذه أكثر بالصور الذهنية التوقعية، نحاول أن نشير إلى أهم أصناف الصور المعادة و لو إشارة وجيزة دون التعمق فيها كثيراً ،حتى تكون لدينا صورة واضحة عنها.

أ).**تصنيف الصور المعادة** IMAGES REPRODUCTRICES :

في البداية نشير إلى أن **J.Piaget**قد فرق في هذه النقطة بين نوعين من الصور المعادة.راعى فيها الظهور المتتالي الذي يشكل أو بالأحرى يعكس المراحل التي يشهدها مسار النمو الداخلي لهذا النوع من الصور مثلها في ذلك مثل بقية البنيات الأخرى التي تلقى نفس المصير.و من ثمة يمكن لنا القول أن كلاً من النوعين ما هو في الحقيقة إلا أحد المراحل الأولى التي تقوم عليها الصور العقلية عامة و الصور المعادة بالخصوص . و مما لا شك فيهإذا قلنا أنهُ لكل مرحلة خاصية أو جملة من الخصائص التي تميزها عن مثيلاتها.حيث يشير نفس الباحث في هذا الخصوص إلى وجود :

أ.1) **الصور المعادة الثابتة** Images reproductrices statiques

هذا الصنف من الصور يقوم عند توظيفهِ على تصّور الأشياء أو أشكال ثابتة .

أ.2) الصور المعادة المتغيرة(المتحركة) **Images reproductrices cinétiques**

هذا الصنف الذي يظهر بعد الصنف الأول يسمح بالقيام باستدعاءات (استحضارات) ذات طبيعة شكلية "**Figurale**" للحركة (الحركات)

أ.3) **الصور المعادة التحويلية** Images reproductrices de transformation

هذا الصنف من الصور المعادة يمكن الفرد (الطفل)من التمثيل بطريقة شكلية لبعض أشكال التحولات التي تعد معروفة من قبل لدى الفرد . وتبعا للمخطط السابق نحاول أن نعرض المخطط رقم 2 لنوضح مجمل ما قدتنا قراءتنا لهذا الجزء و النقطة بالذات .

المخطط رقم ((02)) يوضح مجمل أنواع الصور الذهنية التي أشار إليها جون بياجيه

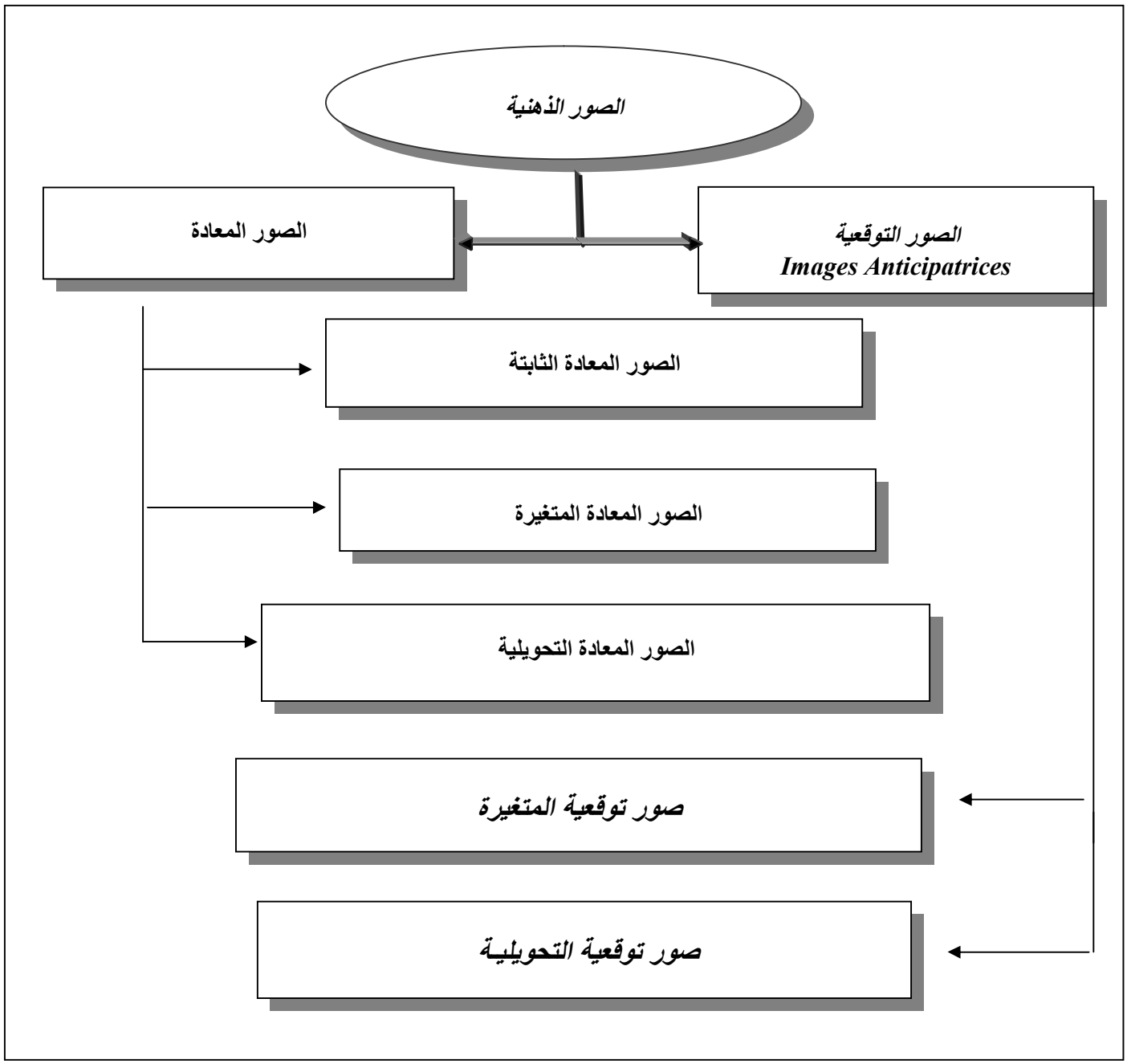

المصدر : صاحب المقال

خاتمة :

بعدنا استعراضنا لما ذهبت إليه نظرية بياجيه لما تناولت الصور الذهنية يتبين لنا مدى أهميتها على أنها بينة معرفية تشهد نموا و تطورا تماشيا و التأثير الحاصل بين الفرد و بيئته و عند دراستها لابد من الأخذ بعين الاعتبار جملة من المعطيات تحددها الطبيعة التي أشارنا إليها في الفقرات السابقة ، وكذا أشكالها و أنواعها التي تناولناها بالتوضيح و التي تعكس في مجملها مدى ارتباطها بالمحيط و البيئة الخارجية للفرد و أنها وليدت التفاعل الحادث بين الفرد و بيئته كما تعكس طبيعة تلك القدرة التي استطاع الفرد أن يكونها عن بيئته من خلال مختلف المسارات و السيرورات التي شكلت موضوع التجارب و المحاكات التي تمت أثناء النمو ،و عليه فالصور الذهنية كما تذهب إليه أفكار جون بياجيه هي وليدت سيرورات يعكسها الفعل أو النشاط المعرفي للفرد والذي يعكس قدرة الفرد على التعرف على العالم الخارجي إما بالتعاطي مع مكوناته فعليا أو استحضارها و استرجاعها حينما تكون غائبة خلال مختلف مسارات النمو و السياقات و الوضعيات يعبر عنها بواسطة بنية معرفية فضائية قائمة على قدرة الفرد على الإدراك و التعرف.

قائمة المراجع :

*)انظر في هذا الصدد مرجع (PIAGET (J):Sis étude en psychologie .Edition Gonthier S.A GENEVE_ 1969)

1) TROURRET (C) & all : Introduction à la psychologie du développement (du Bébé à l'adolescent). ARMAND COLIN -Editeur . Paris. 1994. P 111

2) نفس المرجع السابق. ص ص110.111

3) FORTIN (C):Psychologie Cognitive .PUF Québec .1991. p 295

4)نفس المرجع السابق. ص ص 296.295

5) HYTIER (P) & all :De l'image à l'image mentale. In "Bull.Audiophonolol.An. Sc. Univ. Franche-Comté Vol IX .N°2/1993. P240

6) BERNOUSSI (M)& FLORIN(A) : la notion de représentation .(De la psychologie générale à la psychologie sociale et la psychologie du développement), in "ENFANCE" ,PUF N°1/1995. p71

*) لمزيد من التفصيل انظر نفس المرجع السابق الصفحات التالية: 81.79.73

7) MOUNOUD (P) & VINTER (A) : La notion de représentation en Psychologie génétique. in "Psychologie française" N° 30-341.Nov 1985. P256

8) BERNOUSSI (M)& FLORIN(A) : *Ibid, pp:*73،72

9) DENIS (M).1976,in BERNOUSSI (M)& FLORIN(A) : la notion de représentation . p72

*)انظر في هذا الصدد : (SCHILDER (P);L'image de corps .Etude des forces constructives de la psyché. 10) Trad. de l'angl. GANTHIERETR(F) &all. édition Gallimard 1968)
(M)& FLORIN(A) : *Ibid, p:*72،

11) نفس المرجع السابق. ص78

12) COHEN-BACRI (J) :L'enfant et son Langage dans la Psychologie Contemporaine (une approche Développementale In "Neuropsychiatrie Enfance-Adolesc" 1996 N° 44(9-10).p461

*) نشير هنا أن كيفيات الترميز تختلف من مدرسة إلى أخرى انظر في هذا الصددمثلاً (J.M Bruner ,Mounoud ,J.Laurery)

13)ERNOUSSI (M)& FLORIN(A) : *Ibid, pp:*73،72

14)BERNOUSSI (M)& FLORIN(A) : *Ibid, pp:*78،77

15) نفس المرجع السابق .ص83

16) PIAGET J & all :Traité de Psychologie Expérimentale VII .L'intelligence . PUF Paris 1966. p 67

17) PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant. PUF. Paris.1966.p466
18) BRONCKART (JP) : *Ibid*. p58
19) [19]) PIAGET J & all : *Ibid*. 448

20) نفس المرجع السابق . ص 449

21) نفس المرجع السابق .ص450

22) PIAGET (J) : Formation du symbole chez l'enfant. *Ibid*. p68.
23) PIAGET J & all : *Ibid*. p 67

24) نفس المرجع السابق. ص67

25) PIAGET J & all : *Ibid*.p458
26) PIAGET J & all : Traité de Psychologie Expérimentale VII .L'intelligence. PUF. Paris 1966. p p 67/68
27) PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant PUF.Paris : *Ibid* .p458
28) DOLLE (J.M) : *Ibid* .p63

29) نفس المرجع السابق. ص 63

30) نفس المرجع نفس الصفحة.

31) PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant. : *Ibid*. P P 458.459

[*]) لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة انظر : *Ibid* :PIAGET J & all : Traité de Psychologie Expérimentale

32) PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant: *Ibid*. p419

[*]) لمزيد من التفصيل انظر نفس المرجع السابق .ص ص 418.420

[*]) انظر في هذا الصدد : PIAGET (J) : Psychologie de l'enfant .coll. "Que Sais-je" . PUF 93 Edition . Bouchene Alger. 1993, p p 121.126

33) نفس المرجع السابق. ص ص 419.420

34) PIAGET J & all : Traité de Psychologie Expérimentale VII .L'intelligence. *Ibid*.p97
35) PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant. *Ibid*. pp419/420
36) PIAGET J & all : Traité de Psychologie Expérimentale VII .L'intelligence . *Ibid*. p97

37) نفس المرجع السابق . ص97

38) PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant . *Ibid*. p423

39) نفس المرجع السابق . ص ص 414.413

40) نفس المرجع السابق ص ص419.420

•[1]) انظر في هذا الصدد .LAUTREY .J & all :Le développement opératoire de l'enfant entre 6 et 12 ans. Editions du CENTRE NATIONNAL DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE. Paris. 1983.p192

41)PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant . *Ibid*. p421
42) LAUTREY .J & all : Le développement opératoire de l'enfant entre 6 et 12 ans. Editions du CENTRE NATIONNAL DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE. Paris. 1983.p131
43) PIAGET J & all : Traité de Psychologie Expérimentale VII .L'intelligence . *Ibid*. p83
44) PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant . *Ibid*.p114
45) LAUTREY .J & all : Le développement opératoire de l'enfant entre 6 et 12 ans. Editions du CENTRE NATIONNAL DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE. Paris. 1983.p131

[*]) لمزيد من التفصيل انظر : PIAGET J & all : L'image mentale chez l'enfant. *Ibid*.p p412.420

46) نفس المرجع السابق. ص 371

47)نفس المرجع السابق. ص 414